قراءة تأويلية في شعر" عثمان لوصيف"*
" بين الهامش والمركز"

الأستاذة: حميدة صباحي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة

ملخص:

يتناول هذا المقال ثنائية" الهامش، المركز" التي طفت على الساحة النقدية خلال السنوات الأخيرة، حيث قررت هذه الفئة المهمشة نفض غبار الاضطهاد الذي عُومِلَت به لعهود طويلة، ومن ثَمَّ اقتحام حلبة الصراع ومعترك الحياة الذي كان هاجسا مستحيل التحقق بالنسبة إليهم، وقد أنجب لنا هذا الوضع المؤسف الذي عايشه الكثير من شعرائنا أدبا سميَّ بأدب الهامش الذي سنتعرف على نموذج من نماذجه يتمثل في الشاعر" عثمان لوصيف"

" الهامش/ المركز" على هذين الوترين تعزف الساحة النقدية خلال السنوات الأخيرة، ذلك أن نظرة الازدراء والإهمال التي عُومل بها الكثير من المبدعين المهمشين كانت السبب في انتفاضهم من هذا الوضع، ومن ثم الدعوة إلى رد الاعتبار؛ إذ ليس« من الإنصاف تسليط الأضواء على أدباء دون آخرين، وكأن الإبداع الحقيقي تحتكره طائفة فقط، وتلك نظرة قاصرة تماما تحتاج إلى انفتاح على الطاقات المبدعة في مختلف أماكن وجودها، ورصد الظواهر الفنية والأفكار المختلفة... وذلك يستدعي بالضرورة السهر على تهيئة الأرضية المناسبة للتلقي المحترف والانفتاح على كتابات تعيش في الهامش ونقل القارئ إلى الأماكن الرحبة للأدب، وتحفيز ذهنية القارئ المحترف للتلقي الايجابي والتناسل مع عناصر الدهشة والانبهار والصدمة، والتفاعل العضوي مع تلك العناصر التي تلبد سماء الساحة الأدبية بغيوم كثيفة لعلها على وشك الهطول»(1).

وتلازم الهامش بالمركز يقودنا إلى التعرف على معنى الكلمتين، فما هو الهامش وما علاقته بالمركز؟

تحديد المفهوم:

وردت كلمة" هامش" في المعجم اللغوي بمعنى:" حاشية، ومنه هامشي: من يعيش منفرداَ غير مندمج في المجتمع" مكتوب في الهامش:" تعليقات هامشية" لا دخْلَ له بما هو مهم، لا علاقة له بالنشاط الأساسي(2)؛ ومن هنا أوحت لنا الكلمة بدونية الشيء أو تواضعه!! في حين نستمد من هوامش الكتب ثقافة قد لا نجدها في الكتب نفسها.. إذًا فـــ (الهامش) كلمة ذات عطاء موجب وسالب في آن، وليس سالب فقط، فأن تكون على هامش الحياة يعني أنك بمعزل عن مآسيها، وهمومها، وعللها وأوجاعها وفقرها أو جوعها(3).

ولا يبتعد المعنى الاصطلاحي للكلمة بكثير عن المعنى اللغوي، فهي على رأي توفيق بكار مشتقة من لغة الوراقة، وتتعلق بهيئة توزيع الكلام على الصفحة المخطوطة أو المطبوعة، فلها صدر ولها هامش يحيط به، أما الصدر فللنص أي المتن، وأما الهامش فلتوابعه من التحشية والتعليق(4).

وبهذا يشير أدب الهامش إلى« الأدب الذي نشأ في العتمة، بعيدا عن الأضواء. أو هو الأدب الذي لا يحتفى به، أو هو الأدب المختلف عن الأدب المألوف»(5).

وفي مقابل الهامش نجد المركز، هذه الكلمة التي وردت في المعجم اللغوي بمعاني تقترب إلى حد بعيد من المفهوم الاصطلاحي، فنقول« مركز: ج مراكز: مقر ثابت تتشعب منه فروع[...]، ذاتي المركز: متسم بمركزية الذات:" فكرة ذاتية المركز"»(6).

كما جاء في لسان العرب« ركز: الرَّكْزُ: غزرك شيئا منتصبا كالرمح ونحوه [...] والمراكز: منابت الأسنان، ومركز الجند: الموضع الذي أمروا أن يلزموه وأمروا أن لا يبرحوه، ومركز الرجل: موضعه، يقال أخلَّ فلان بمركزه»(7).

وإذا كان المعنى اللغوي للكلمة يعني الموضع والمقر الثابت فإن المعنى الاصطلاحي يقترب إلى حد ما من هذا المعنى- كما ذكرنا سابقا-، فأدب المركز جاء كمقابل لأدب الهامش وهو« الأدب البلاطي، أدب ينشغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الساسة والفنانين ورجال الدين أحيانا»(8). فتقام لهم الحفلات وتشاع أسماؤهم في المنابر ليحتفى بهم في المناسبات.

وقد ظهر لنا أدب الهامـــش أو بالأحرى" أدب المنسيين"« وكان ظهوره جليا في

مدن الداخل الجزائري، المقموع ثقافيا، عندما أقاموا ملتقى ثقافيا هو الأول من نوعه تحت مسمى(عرس الهامش)، وكان يعني(أدب المهمشين) المتمردين على المنظومة الرسمية مثلما هو معروف في آداب وفنون الشعوب الأخرى، وكانت أول محاولة للاحتفاء بذلك الزخم سلسلة(نصوص الهامش) الشعرية التي أصدرتها« رابطة كتَّاب الاختلاف» نهاية تسعينات القرن العشرين، وصدر عنها الكثير من النصوص الشعرية لشعراء كانوا مهمشين في المنظومة الشعرية الرسمية قبل ذلك»(9).

وقد عانى« أدباء الهامش ما عانوه على مدى عقود طويلة، ولم تفد الدعوات ولا التنبيهات ولا الاحتجاجات في تغيير الوضع[...] وهكذا كان أدباء العاصمة يستكثرون على أدباء المحافظات أي بقعة ضوء تسلط على إبداعهم، لأنها في عرفهم مسروقة من حصتهم الإعلامية وممنوحة من دون حق إلى أدباء لا يستحقونها»(10)، إلا أنه طفح الكيل وأخيرا قررت هذه الجماعة المضطهدة دق ناقوس الخطر بعد معاناة طويلة لاقتحام حلبة الصراع من خلال هذا العرس الفريد من نوعه.

ومن بين الكتاب الجزائريين الذين فقهوا حياة الهامش وأدركوا ضرورة معايشتها بمآسيها ومرارتها الشاعر" عثمان لوصيف"، الذي تظاهر بعدم فهمه للوضع على الرغم من إدراكه لأسرار اللعبة. وفي ظل هذا الانشغال يبقى السؤال المطروح أين نضع تجربة الشاعر عثمان لوصيف؟ هل نضعها ضمن أدب المؤسسة؟ أم نصنفها ضمن أدب الهامش؟ ماهو موقف الشاعر؟ وهل يعتبر شعوره بالاغتراب تهميشا؟

بين الهامش والمركز:

على الرغم من معايشته واستغنائه عن عفن الحياة إلا أن شعور التمرد والثورة انتصر على الصمت والخضوع في كتابات عثمان لوصيف، حيث تبدو ملامح الرفض والأسى جلية على أغلب أعماله الشعرية؛ فكانت هذه الأعمال محملة بمجموعة من الرسائل المترجمة لحالته في ظل صراع الهامش والمركز، ولعل من أبرزها ما جاء من نصوص أخرى كانت مفتتحا لدواوينه، نورد منها ما ورد في ديوان" نمش وهديل"،« قوله صلى الله عليه وسلم:(لا رهبانية في الإسلام) وقول الشاعر أبي العلاء المعري:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا   تجاهلت حتى ظن أني جاهل

وقول أبي القاسم الشابي:

سأظل رغم الداء والأعداء   كالنسر فوق القمة الشمـــاء»(11).

ومن ثم فالشاعر" عثمان لوصيف" لم يكن شبيها ببقية الشعراء المهمشين الذين قضوا نحبهم في رثاء الهامش، بل آثر على الرغم من عدم اقتناعه بهذه الحياة امتطاء صهوة التحدي والترفع على كل من جَهَلَ مكانته على الرغم من إحساسه بمرارة الوضع، وهذا ما نلمسه في الكثير من قصائده وعلى رأسها ديوانه" المتغابي" الذي أبرز فيه هذه النظرة ناظرا إلى كل من كانوا سببا في تهميشه نظرة قاصرة لا ترقى إلى المنزلة التي هم عليها يقول: أنا نوح... ومن وهجي/ تعم الكون آيات/ وأنوار/ أنا من مَعدن حُرّ / وما في الأرض/ ديدان... وأحجار!(12)

ولعل المثير للسخرية هو اكتشاف الشاعر لقواعد اللعبة- كما ذكرنا سابقا- وتظاهره بالغباء، معلنا غضبه وهجاءه لهذه الطائفة، ولكن سرعان ما يتحول هذا الإحساس إلى لوم وعتاب يقول: عثمان يسألني الآن/ عثمان يلعنني الآن/ من أنت/ نذل.. خسيس.. حقير/ تدعي فقه فلسفة لست تدركها/ وتروم سنى.. هو أبعد من أن تلامس/ جوهره المستنير (13)

إلى قوله: أين.. أين المفر؟/ جبان من اعتزل البحر/ والعاصفات/ وعاد إلى هدهدات النخيل/ ليقبع مثل الأسير/ أنت.. من أنت؟ لا.. ثم لا.. !!/ أنت سيد كل الخلائق/ كل الورى/ ملك الشمس والأغنيات(14).

وإشارة الشاعر إلى مشكلة الابتعاد عن أضواء العاصمة كانت نقطة التقاء الكثير من شعراء الهامش الذين عايشوا المحنة، وحمّلوا" سلطة المركز" مسؤولية ما آلوا إليه من تهميش، ليضموا أدبهم إلى أدب الضواحي، والمتمثل في« أدب الكتاب الذين يقطنون خارج العاصمة التي ينظر إليها على أنها المركز»(15)؛ ففي الجزائر قلما نجد« كاتبا معروفا تعود أصوله إلى مدينة الجزائر العاصمة صاحبة التاريخ الطويل، وعدد السكان الكبير الذي يقارب الخمسة ملايين نسمة إلا في حالات استثنائية، ومع ذلك فكل المنابر الثقافية والإعلامية في هذا البلد وكل الجمعيات الفاعلة تقريبا موجودة في الجزائر العاصمة، ونتيجة لهذه المفارقة الغريبة نشأ ما يمكن أن يسمى« أدب العاصمة» و« أدب الضواحي»، هذا الأخير الذي يكتبه أدباء يعيشون خارج العاصمة وصخبها وحتى أضوائها الإعلامية»(16).

والشاعر" عثمان لوصيف" فَقِهَ تفاصيل هذه المفارقة وعبر عنها في الكثير من

القصائد مثلما رأينا في المقطع السابق؛ حيث نَعَتَ كل من اعتزل البحر بالجبان الأسير.

وفي ظل هذه المسيرة المحملة بالزفرات والمليئة بالآلام نسج الشاعر تفاصيل تجربته من خلال العديد من الوسائل التعبيرية أو الفنية، لعل من أبرزها:

1/ **الرمز:** الرمز هو الأداة التعبيرية التي تعكس تجربة" عثمان لوصيف" الشعرية؛ إذ باستطاعة هذه الوسيلة الجمالية نقل ما ينصهر بداخل الشاعر من الصراعات والشحنات العاطفية التي قد تعجز اللغة البسيطة عن إيصالها.

إن هذه الطاقات الإيحائية التي تحملها بنية الرمز هي ما يمنح النص بعدا فنيا وجماليا يفتن القارئ ويدعوه إلى تفكيك شفرات النص؛ حيث يتحقق عنصر الدهشة والاستفزاز ويدفعانه إلى التأويل.

وقد استخدم الشاعر مجموعة من الرموز تنطلق من هموم واقعه الإنساني الاجتماعي فجاءت مرآة عاكسة لآلامه وجروحه نذكر منها: النار، البحر، الجماجم، الطيور، .... ومن أكثر الرموز اللفظية شيوعا رمز" النار"« وهو من مفردات العالم الحلمي أو الكابوسي؛ فالذات تبدو دائما محاصرة بالنيران وهي ترمز إلى براكين الغضب والثورة والتأجج الكامنة في صدره إزاء العالم الخارجي الذي يرفضه، ومن هنا يكون استدعاء رمز النار لإحراق الواقع المجدب وإعادة تشكيله وفق أحلامه وتطلعاته بعالم مثالي»[17].

ومن القصائد التي تجسد هذا المشهد قصيدة" هي النار"؛ حيث يقول: أقول لها: اركبي الأهوال/ والتهمي شظايا الوقت/ والأشلاء/ والأسمال.. يا نار/ وقادمة من الأعماق/ تتبعها/ أعاصير.. وأمطار/ سعالي العصر هاربة/ وكل الدينصورات التي هرمت/ على الأنقاض تنهار/ ستجرفكم هي النارُ[18].

وفي مقاطع أخرى يرتبط الرمز ذاته بدلالة الثورة والتغيير ومن ثَمَّ رفض الواقع وما يشوبه من انكسار؛ حيث يقول: هذا الطفل العابث.. مزمار لا يصدأ/ نار لا تهدأُ/ ريح تجتاح الأرض/ ومدّ يتبعه مدْ/ يا طفل البرق وطفل الرعدْ/ دمدم ملء الآفاق/ دمدم في أعماق الأعماق/ ودع الإعصار الغاضب يشتد.. ويشتدْ/ فمدائننا عربد فيها السلطانْ/ وطغى فيها الكهانْ/ آه ...[19].

لقد استحضر الشاعر رمز" النار" في هذا المقطع للدلالـــة على مدى قذارة الواقع

وضرورة تطهيره من الخطايا والآثام وإذا كان رمز النار يومئ إلى الرغبة في تغيير العالم الخارجي فإن رمز" الظلام" بحسه المأساوي المخيف لا يبتعد كثيرا عن دلالات هذا الرمز، بل قد يفوقه أحيانا؛ إذ حمَّل الشاعر هذا الدال الرمزي- الظلام- كتلة من المآسي والأحزان قد يعجز أيُّ رمز آخر عن حملها؛ حيث يقترن بصورة الانهزام والانكسار التي تعانيها الذات الشاعرة في كثير من المواقف، يقول: مُرَّة كلماتك هذا المساء/ وطعم شفاهك طعم الرمادْ/ مُرٌّ مديحي/ وتفاح هذا المدادْ/ كنت غنيت أعيادك البيض/ بالأمس/ حتى استبدَّ الظلام/ وأوغلت في بحر هذا الحدادْ/ إلى أن تسربَل شعري/ بهذا السواد[20].

إذن حاول الشاعر من خلال هذه المجموعة من الرموز المتقاربة في المعنى (الظلام، الرماد، السواد) وصف ما آل إليه الوضع من ضياع وزيف ومن ثَمَّ صورة الذات المصدومة في واقعها، ولكن الظلام بقدر ما يحمله من معاني سلبية فإنه« الدافع الأول والخفي الذي يحفز الذات حتى تبدأ في السعي نحو النور والحقيقة»[21]؛ لذلك اقترن النور بالظلام على هيئة« لوحات بصرية حيث تتناوب ومضات البرق وإشعاعات النور مع الاكتساح الكلي للظلام والغمائم»[22].

وثنائية" النور، الظلام" من أغزر الدوال الصوفية التي لجأ إليها الشاعر لإيصال ما يرمي إليه، خاصة رمز النور الذي يشير عند الصوفيين إلى الذات الإلهية المعرفة، التجلي، وإذا كان الأوائل قد وظفوا الرمز بهذه المعاني فإن توظيفه في الشعر المعاصر أخذ مدلولات عدة وألفاظا مختلفة كالضياء، القمر، البرق... يقول" عثمان لوصيف": لكن طفلا مَعْتُوها/ لا يزال يَغتَسلُ بالسهاد/ ويدّثر بعهن الكلمات/ لا يزال يهرول مثل الحجيجِ/ بين البَرْق والظُلمة/ لا يزال هنا../ ينبش في أتربة الدَّيجُور/ بَاحثا عن البذرة المطْمُورة/ لأرجوان النهارات[23].

يجسد لنا هذا المقطع الشعري من خلال ثنائية" البرق، الظلمة" سعي الصوفي في الوصول إلى لحظة التجلي والكشف؛ حيث يظهر الظلام كعائق لتحقق ذاك الاتصال، لكن الذات الشاعرة لا تعرف الإخفاق والعجز بل تسعى إلى هتك ستار الحقيقة المخفية رغم المخاوف التي تنتابها؛ ففي ثنايا الظلام تكمن أشعة النور أو النهارات على رأي الشاعر، وبالنتيجة يبقى بريق الأمل كالبرق يشع بداخل الشاعر على الرغم من إحساسه بالضياع.

ويقرن الشاعر نقطة الضوء في كثير من المشاهـــد باللون الأخضر، وهو رمز

عرفاني له حضور مميز في كتابات المتصوفة، واستحضار الشاعر لهذا اللون جاء في وصفه للحظات الارتقاء أو الاتصال بالذات الإلهية، فغدا كل ما حوله أخضر: الخيمة، العصافير، الريش، اللهب، الهجرة، الشمس...

يقول الشاعر: صاعد في خيوط الضياء/ نحو عينيك.. أمشي على درجات الندى،/ والأغاني عصافير خضراء ترتفّ حولي/ وتمسح بالريش حزني المعتَّق/ يا أيَّها الفلق المتوهج في رحم الليل/ يا شعاع الروح،[24].

يتخذ الشاعر من اللون الأخضر بدلالته الايجابية(التجدد، الرخاء، السعادة) العزاء الذي يزيح عنه الآلام والعذابات وينقله من بحر الظلمات إلى نور الالتقاء أينَ تتجلى المعارف الإلهية للذات الصوفية، وفي ظل رحلة البحث عن التجلي يتراءى بريق الأمل المتجدد بداخل الشاعر: وهاهو سريري الأول/ لمَّا يَزَلْ/ يسبح بي/ في فضاء من النجوم/ والريش الأخضر/ لا أرى نُعُوشا/ تحملها الناس على الأكتاف/ كما يزعمون../ بل أرى أسرّة تحملها الملائكة عائدة بأصحابها/ إلى موطنها الذي غادرته/ منذ أمد بعيد[25].

والعودة إلى الوطن تتدرج ضمن فكرة" الاغتراب" أو الغربة التي ارتبطت عند الصوفي بالفناء كونها تشير إلى« مراحل مهمة يسلكها الصوفي في معراجه، وقد حاول ابن عربي إخراج مفهوم الغربة من إطارها الجغرافي الضيق ليضفيَّ عليها طابعا كونيا يتعلق بالحركة الدائمة والقلق المستمر الذي يحقق مبدأ الانفصال، كما أنه ربط هذه الحركة وهذا الاغتراب الوجودي بحركة الحب الصوفي وما يرتبط به من عشق الهي»[26].

ولقد انتقل هذا الاغتراب إلى التجربة الشعرية المعاصرة، خاصة المتجهة نحو الخطاب الصوفي، نتيجة ما لاقاه الشاعر من تناقض في هذا الواقع القلق، وضمن هذا المسار كانت بنية" الاغتراب" العصا السحرية لدى" عثمان لوصيف" في نقل تجربته إلى القارئ.

2/ **بنية الاغتراب:** الشعور بالاغتراب قديم قدم الإنسان والوجود، ينشأ نتيجة« عدم الانسجام مع الحياة بفعل الفقدان والنقص وغياب التعويض الذي يرفع حال الشعور بالسلبية ويحل حال الإيجاب»[27]، لذلك نستطيع القول إن ظهوره يعود إلى الأزمات التي

« عانى منها الفرد وواجهها على وفق حجم طاقته العادية والروحية، فقد تعود إلى التمرد والعصيان، مثلما قد تقضي به إلى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات»[28].

والحديث عن" الاغتراب" لم يقتصر على الأدباء لوحدهم بل كان محور حديث وجدال الكثير من الفلاسفة والمفكرين، خاصة مع تعقد الحياة وانتشار الحروب، التي خلقت الكثير من المآسي والأحزان بداخل الإنسان.

وإذا ربطنا هذه الظاهرة بفئة الأدباء وعلى رأسهم الشعراء فهذا يعود إلى إحساسهم المرهف، وشدة وعيهم لمدى تعفن الحياة« فالشاعر أسرع من غيره إلى الإصابة بهذا الداء لأنه يتمتع بقدر عال من الحساسية والتوتر والرهافة»[29].

لقد انعكست معاناة الشاعر العربي على أعماله، واختلفت ردود أفعاله بين الانسحاب والمواجهة، فتمخض عن هذا الإحساس المرير أشكال وألوان من الاتجاهات يأتي في طليعتها الشعر الوجداني الذي حاكى الرومانسية الغربية؛ حيث اتخذت هذه الجماعة من الشعراء من« الليل أنيسا، وتاقوا إلى حياة الكوخ، واعتزلوا المدينة، وتغنوا بالألم، وصار الحزن نديما لهم»[30].

إن معظم الشعراء أبدعوا من موقع الشعور الفجائعي بالاغتراب، اغتراب عن الذات الباحثة وعن هويتها وهي مضيعة في دوامة زمن لا يعترف بالهوية، ماعدا في حدود ما يستلب منها، حينما تسجن في قفص الوظيفة، أو اغتراب عن الوسط الاجتماعي الذي ينكر على الشاعر جموحه وتمرده على الأعراف والتقاليد، أو اغتراب عن أرض الصرخة الأولى التي تبقى متعلقة بالحبال الصوتية للشاعر ومشدودة بحبائل مخياله السرود، فتصادر سكينته وتزرع فيه ثورة متيقظة ومتحفزة للانفجار[31].

ومن هنا فقد كانت ظاهرة" الاغتراب" كنتيجة حتمية لانفلات الشاعر من زيف الواقع وتضارباته، والشاعر" عثمان لوصيف"- كما ذكرنا سابقا- كغيره من الشعراء المهمشين، كان ضحية هذا الشعور الآسر فكانت قصائده أصدق تعبير عما يختلج صدره من سكنات متأججة، وانفعالات ملتهبة، على الرغم من عدم استسلامه في كثير من المواقف أو المقاطع الشعرية، حيث يتجلى صراع" الرفض والاستسلام" في أغلب قصائده، ومن المقاطع المجسدة لهذه الثنائية الضدية قوله: أنت.. من أنت؟/ وطواطُ كَهفْ يهاب الضياء/ ويهوى الدُّجى/ غيلم/ عنكَب/ سرطان خبيــث/ وبوم يعشِّش بين الغرائب/ ثم ينام

وينتظر الليل/ كيما يطيرْ/ لعنات الورى كالسهام تلاحق ظلّك[32].

إلى قوله: أنت.. من أنت؟/ لا.. ثم لا..!!/ أنت سيد كل الخلائق/ كل الورى/ ملك الشمس والأغنياتِ/ ..../ آه، لكنما قدماك مكبلتان/ جناحاك منكسران أيا سيّدي في المحيطاتِ/ ..../ ويا طائرا تتحاماه كل الطيورْ![33].

هكذا يبدوا اغتراب الشاعر انطلاقا من شعوره بالوحدة والضياع في موطن هو موطنه، وبلد هو بلده، حيث يحلم كل إنسان بالارتقاء والنجاح، ولكن هيهات أن يتحقق له ذلك في ظل محاصرة المركز، واحتكار مجتمع المركز، ليضل قابعا في حياة الهامش محتفلا ومشجعا لأدبهم، يقول: لماذا تُذْبَحُ السُّنْبلة/ قبل أن تَكْتَنِزَ بالذهب؟/ لماذا يُكْسَر جناحُ الصقر/ سيّد الأعالي؟/ لماذا/ يصلب الأنبياء المجتبون/ وتقطع ألسنة الشعراء؟/ ولماذا لا تُبنى العروش/ إلا على جماجم الفقراء؟ [34].

والمقطع الشعري الذي بين أيدينا يحمل الكثير من الدوال الرمزية المشحونة بعواطف الأسى والألم(الكسر، الذبح، الصلب، القطع)، وهي توحي للقارئ بما مورس اتجاه هذه الفئة من الشعراء من غدر واضطهاد وهو في تحمله لهذه المشاق شبيه بالنبي، فكل من النبي والشاعر يهدف إلى تغيير المجتمع ومن ثَمَّ زرع الأخلاق والمشاعر النبيلة في الشعوب والأمم، وهذا ما يعلل استحضار الشعراء لتجارب الأنبياء المحفوفة بالأشواك، بل وتقمص شخصياتهم، مما يضفي على تجاربهم عمقا وبعدا إنسانيا يستثير القارئ ويجذبه، وعلى هذا النحو استطاع الشاعر" عثمان لوصيف" تجسيد ما بداخل الإنسان المعاصر من هموم ومشكلات كان ضحيتها الطبقة البسيطة من المجتمع؛ حيث لا تبنى العروش إلا على جماجم الفقراء، وكلمة" جمجمة" كفيلة بإيصال ما بداخل الشاعر من انكسار وخواء لِما يشوبها من طابع كابوسي مفزع.

ومن أكثر الرموز اللفظية الموحية بهذه المعاني رمز" المنفى"، هذا الدال الرمزي الذي اتخذه المتصوفة كوسيلة للوصول إلى الأحوال السامية وتحقيق الاتصال بالذات العليا؛ إذ« لا ينال الصوفي من المعرفة إلا بقدر غربته عن نفسه، والقصد من وراء تلك الغربة هو تقليص حظ النفس من الدنيا وخلق القطيعة مع الذات الشهوانية، حتى تسمو الروح نحو المعارج وهي مجردة من صفاتها»[35].

ومن ثَمَّ يتخذ" النفي" عند المتصوفة دلالة« محو الصفات المذمومة ويقابله

الإثبات، أي إثبات الصفات الحميدة، أو أن النفي لمراد الإنسان، والإثبات لمُراد الله، والمحبة هي نفي مُراد المُحب بإثبات مراد المحبوب وقيل في ذلك: اختيار الحق لعبده مع علمه بعبد، خير من اختيار عبده لنفسه مع جهله بربه»(36).

والشاعر في استحضاره لهذا المعنى ينطلق من الغربة المكانية إلى الغربة الروحية، حيث يحاصره النسيان، يقول: منفيّ أنت.. يحاصرك الرملُ/ ويزاحم مضجعك النملُ/ في سبخة هذي البلدة../ حيث الموت.. فلا نوادر ولا أزرارْ/ آه.. يا نار الجرح!/ ويا جوع المزمار!................/ آه.. يا معجزة الإبداعْ!/ هل ينفى الشاعر في مسقط رأسه؟/ هل نار الحرف تضاعف من نحسه؟(37).

وهو مقطع مُحَمل بزفرات الألم، ومُتَرجمٌ لحالة التقلص التي يعايشها الشاعر بمنشئه؛ حيث تحمل« مدينة طولقة أبعادا سلبية[...] فهي مدينة مجنونة، ومقبرة»(38).

وفي قصيدة" آه... يا زمن اللؤلؤة!" يلعن الشاعر مكان ولادته، الذي قد يكون سببا في تهميشه يقول: سائخ أنت.. في هذه البركة المالحه/ في الطحالب، في الطين، في الأوبئه/ ليس بين يديك سوى/ هذه السعفات المريضه/ والضفادع.. والرغوة الطافحه(39).

إن الرموز الواردة في هذا المقطع(البركة المالحة، السعفات المريضة، الضفادع، الرغوة الطافحة) بما تحمله من معان سلبية كفيلة بنقل القارئ إلى جو القلق المحيط بالشاعر؛ حيث يؤول كل إحساس وإبداع بداخله إلى جماد وركود، وهذا ما عبر عنه في قصيدة" شلل" يقول: قال.. قال: أغنّي/ فلم يستطيعْ!/ قال: أبكي/ فلم يستطعْ!/ قال: أقرأ.. لم يستطعْ!/ قال: أكتب.. لم يستطعْ!/ قال: أعتزل الشعر/ لم يستطعْ!(40)

وبين الضعف والقوة يتكئ الشاعر على فضاءات رحبة تعكس رؤيته للواقع وكشف مايشوبه من ظواهر سلبية، لتبدو قصائده مزيجا من النصوص المنصهرة مع تجربته، وفي هذا الاستدعاء أو الاستحضار تظهر مهارة الشاعر في انتقائه للنصوص الألصق بنفسه ووجدانه، والمثيرة لذاكرة القارئ في الوقت ذاته، فكيف جسد الشاعر مسيرته الحافلة بالعطاء من خلال هذه الوسيلة التعبيرية الفنية؟

3/ التناص: التناص مهارة جمالية تعمل على إدماج القارئ في العمل الأدبي، وتنشيط ذاكرته لاستقبال ذلك الحشد الكبير من الثقافات المتنوعة؛ فالمبدع يسعى إلى استغلال ثروة فكرية تتناسب مع تجربتـــه الشعرية، بعد أن يعيد صياغتهـــا في نص جديد محكم البنـــاء

والنسيج.

وبنية التناص في شعر" عثمان لوصيف" تعكس سلبية الواقع وانزعاج الشاعر من تلك التناقضات والتضاربات المحيطة به، بل جاءت أنماط التناص متنوعة لتؤكد معاناة الذات في ظل جهامة الوضع الراهن. ومن النصوص أو الرموز المعبرة عن ذلك العروج أو الرحلة.

إن حضور الخطاب الصوفي في الشعر المعاصر بكثافة كان السبب الرئيس في توظيف الشعراء لرحلة العروج على الرغم من اختلافهم في نسج تفاصيلها، وهو عروج يسعى إلى التماهي مع المطلق، وصولا إلى الذات« لأن المعرفة الصوفية مرتبطة بمعرفة النفس، فمن عرف نفسه عرف ربه، على حد قول الصوفية قديما، فإذا ما بلغ الصوفي هذا الحال– المعرفة– ارتد إلى ذاته قصد سبر أغوارها لأن معرفتها– الذات الإنسانية– هي فيض من المعرفة الغيبية»(41).

يقول الشاعر في قصيدة المعراج: خلني/ فاضت السماء بعينيّ نبيذا واستيقضت أعشابي/ صاعد في الحفيف، في نشوة الوخز، في ريش السحاب/ في الأهدابِ/ صاعد../ صاعد../ ..../ ..../ خلني.. خلني فهذا اغترابي/ هذه شهوتي.. وهذا عذابي(42).

إن هذا الصعود يشير إلى اتجاه الذات نحو المطلق، وهو بمثابة إشارة للقارئ إلى مدى سأم الشاعر وكرهه لسواد الواقع؛ حيث تكون هذه الرحلة بمثابة العزاء الروحي له، وهو شبيه في ذلك بقصة الإسراء والمعراج التي كانت بمثابة رحلة خلاص للرسول صلى الله عليه وسلم من إيذاء المشركين.

واستحضار الشاعر لهذه الرحلة لم يقتصر على لفظ واحد بل تعداه إلى العديد من الرموز منها: الريح، الطائر، الفراشة، الأجنحة، مما يدل على كثافة حضورها في قصائده؛ ففي قصيدة" التجلي" يقول: صاعد في خيوط الضياءِ/ نحو عينيك.. أمشي على درجات الندى،/ والأغاني عصافير خضراء ترتفّ حولي/ وتمسح بالريش حزني المعتّق/ يا أيها الفلق المتوهج في رحم الليل،/ ...../ صاعد نحو عينين لألاءتين/ هما سدّتي وزمردّتي/ وهما نشوتي واشتفائي(43).

لقد شبه الشاعر رحلته بالطائر وارتقائه نحو الأعالي؛ حيث يتم التطهر من الذنوب البشريـــة والخلاص من حياة الإنسان المليئة بالهموم والآلام إلى مغامرة العروج،

ولا يكتفي الشاعر برمز الطائر والتحليق للتعبير عن الرحلة العروجية بل يتجاوزها إلى لفظة" الفراشة" كرمز للذات الصوفية المتعطشة للنور فهي« رمز للجلال الإلهي، كما أنها رمز لكثرة الترحال والتنقل من زهرة لأخرى، وذلك الرحيق الذي تمتصه الفراشة هو نفسه طعم المجاهدات والمقامات الصوفية، كما لا تمل الفراشة من رحلاتها لا يمل الصوفي أيضا» [44].

يقول: فراشتان في الغبشْ/ رقشتاني بالنمش/ على رموشي رفّتا/ وفوق صدري حطّتا/ دغدغتاني بالهوى/ ومسّتاني بالغوى[45].

وفي غمار البحث عن بديل يُخَلِصُ الشاعر من هموم يومه يتقمص" عثمان لوصيف" شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام في قصة الإسراء والمعراج؛« حيث تبتدئ بانفتاح السماء الإلهية وتسخير البراق، وفعل الطيران– المعراج– والالتقاء بالأنبياء وصولا إلى سدرة المنتهى، وهي آخر نقطة يصل إليها العروج الصوفي، أين تتجلى المعارف الإلهية بالذات الصوفية»[46].

يقول: ها سماؤك تفتح أبوابها/ البراق الإلهيّ يحملني/ في رفيف جناحيه ثم يطير/ السلام على الأنبياء،/ أرى سدرة المنتهى تتلألأ بالخضرة الأزلية[47].

وعلى الوتيرة نفسها يبحث الشاعر عن نصوص أخرى تعبر عن سقمه فكانت معظم استحضاراته تصب في معاني التغيير والرفض ومن ثم البحث عما هو أفضل. ولعل من أهم الشخصيات المعبرة عن ذلك الرمز الأسطوري" السندباد". وإذا كانت شخصية" السندباد البحري" تقوم على المغامرة والبحث الدائم في العوالم المجهولة عبر البحار فإن استحضار الشاعر لهذه الشخصية جاء من قبيل إعطاء صورة صادقة عما يجول بخاطره فينقل للقارئ ما بداخله من حيرة واحتراق محملا قصائده مجموعة من الأسئلة تعمل على فضح و« تعرية الواقع وكشف ما يشينه مكن ظواهر سلبية»[48].

يقول: مرحبا سيدي!/ هل قرأت عن السندباد الذي جنّ بالبرق،/ عن زهرة الرمل كيف تصير دما،/ عن نبي تحدر من عسل النخل واللبن البدوي،/ وحين أحب رمته القبائل بالكفر[49].

وهكذا تتجلى لنا نظرة الشاعر للواقع وفهمه لتفاصيله وقواعده، ليبدو لنا في كثير من المواقف ناقما على نفسه وعلى المجتمع، ولعل من أهم الشخصيات التي استحضرها

الشاعر الدالة على ذلك شخصية" الحطيئة"؛ حيث يقول: آن أن ألعنكْ/ يا حطيئة.. يا نحس هذا الزمانْ/ آن أن أطعنكْ/ أيها العنكبوت الجبانْ/ ..../ لم تكن ناعما../ لم تكن مستصاغا/ كلامك مرّ/ وعزمك فوضى/ تحاول أن تتخطى الرمال/ ولكن كثبانها تتراكم دوما/ ورجليك سائختان/ ..../ آه.. أين الملاذ وأين المفرْ؟/ أرى لي وجها شوّه الله خلقه/ فقبّح من وجه وقبح حاملهْ[50].

هكذا كانت رحلة الشاعر مليئة بالحزن والأسى النابع من شعوره بالاضطهاد واللامبالاة، إلا أن روحه المتمردة الثائرة لا تأبى الوقوف في المحطة وانتظار المعجزات على رأي الدكتور" عبد الكريم شريف"،« إنه كالعنكبوت ينسج خيوط قدره من أعماقه، أو كالطائر الفنيق يحرق ذاته الفانية ليخرج من رمادها ذاته الخالدة، أو هو كبرو ميثيوس،– يقول لا.. ويتلقى بعنفوان جمال الصاعقة»[51]، يقول: هذا الطفل العابث.. مزمار لا يصدأُ/ نار لا تهدأُ/ ريح تجتاح الأرض/ ومد يتبعه مد[52].

الهوامش:

* عثمان لوصيف: شاعر جزائري ولد عام 1951 في طولقة بولاية بسكرة. تلقى تعليمه الابتدائي وحفظ القرآن في الكتاتيب، ثم التحق بالمعهد الإسلامي بسكرة، بعد أربعة سنوات من الدراسة عاد إلى المعهد عن بعد معتمدا على نفسه، إلى أن أحرز على شهادة البكالوريا، التحق بمعهد الآداب واللغة العربية بجامعة باتنة وتخرج عام 1984، حيث انخرط في سلك التعليم الثانوي بصفة أستاذ ويعمل أستاذا للأدب العربي. من دواوينه « الكتابة بالنار 1982 سبق الياسمين 1986، أعراس المدح 1988....». ويكيبيديا الموسوعة الحرة عثمان لوصيف. الموقع: .Wikipedia.org /wiki/ar

(1)– لعلى سعادة: أدب الهامش.... نغمة للغناء وأخرى للبكاء

http://www-aswat–elchamal.com، تاريخ زيادة الموقع: 2011/12/25 الساعة: 9:55.

(2)– أنطوان نعمة وآخرون: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت لبنان، ط1، 2000، ص 1490.

(3)– ينظر هدى بنت فهد المعجل: بلا تردد/ ماذا لو كنت في الحياة مهمشة، الجزيرة (الرأي) http//:www.Al-aazirah.com، تاريخ زيارة الموقع: 2011/12/25 الساعة 9:55.

(4)– ينظر كمال الرياحي: الفلسفي" في عشب الليل"(1) لإبراهيم التوني– 12 حزايران يوليو 2007. الموقع: Http:www.Diwan alarab.com/spip.Php?Article 9391 تاريخ الموقع 2011/12/25 الساعة 9:55.

(5)– لعلى سعادة: أداب الهامش. نغمة للغناء وأخرى للبكاء.
http://www-aswat–elchamal.com

(6)– أنطوان نعمة وآخرون: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ص 582.

(7)- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، مج3، ص 113.

(8)- كمال الرياحي: الفلسفي في" عشب الليل"(1) الإبراهيم الكوفي– 12 حزيران– يونيو 2007(الموقع نفسه)

(9)– هدى بنت فهد المعجل: بلا تردد/ ماذا لو كنت في الحياة مهمشة.
http://www.al-ajazirah.com

(10)– المقالة بعنوان أدباء المحافظات بين الحضور والتهميش، شبكة النبأ المعلوماتية، الأربعاء 12 آيار 2010 الموقع:
www.Annabaa.Org/nbanews/2010/05/152.htm
تاريخ زيارة الموقع 2011/11/25 الساعة 10:00.

(11)– عثمان لوصف: نمش وهديل، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر،(د ط)، 1994، ص 03.

(12)– عثمان لوصيف: المتغابي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر،(د ط)، 1999، ص 05، 06.

(13)– المصدر نفسه: ص 95.

(14)– المصدر نفسه: ص 97، 98.

(15)– لعلى سعادة: أدب الهامش.... نغمة للغناء وأخرى للبكاء
http://www-aswat–elchamal.com

(16)– ينظر الخير شوار: كتاب الضواحي الجزائريون يكسرون عزلتهم بالتمرد على الانترنيت، كل ما هو خارج العاصمة لا يستحق الضوء، جريدة" الشرق الأوسط"، الأبعاد 04 أبريل 2007، العدد 10354، الموقع:

http://www.Aawasat.Com/details.aspi section

تاريخ زيادة الموقع: 2011/12/25 الساعة 9:55.

(17)– فوزي سعد عيسى: جماليات التلقي، قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، القاهرة،(د ط)، 2009، ص 216.

(18)– عثمان لوصيف: المتغابي، ص 4– 5.

(19)– عثمان لوصيف: براءة، ص 64– 65.

(20)– عثمان لوصيف: المتغابي، ص 22.

(21)– حميطوش كريمة: جدل النور والظلام في ديوان" ولعينيك هذا الفيض" لعثمان لوصيف، الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الآمل للطباعة والنشر، 2008، ع 3، ص 204.

(22)– المرجع نفسه: ص 200.

(23)– عثمان لوصيف: ولعينيك هذا الفيض، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر،(د ط)، 1999، ص 18– 19.

(24)– عثمان لوصيف: براءة، دار هومة للطباعة والنشر، بوزريعة، الجزائر،(د ط)، 1994، ص 47.

(25)– عثمان لوصيف: قصائد ظمأى، ص 35– 36.

(26)– محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، دار بهاء الدين للطباعة والنشر، الجزائر، (د ط)،2009، ص 390– 391.

(27)– عبد الرحمان تبرماسين وآخرون: سحر النص وافق القراءة، منشورات مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، مطبعة علي بن زيد للفنون المطبعية، بسكرة، الجزائر، ط 1، 2010، ص 47.

(28)– محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي:
a/9 annass-ibda 3.org/t499-topic.

تاريخ زيارة الموقع 2011/11/29 الساعة: 12:30
(29)– الموقع نفسه.
(30)– الموقع نفسه.
(31)– ينظر محمد ياسين رحمة:" قالت الوردة" للشاعر" عثمان لوصيف" بيان شعري من أجل الإنسان الكوني، الموقع: WWW-aladabalarabi.com/…./2667
تاريخ زيارة الموقع: 11/11/25 الساعة: 9:55.
(32)– عثمان لوصيف: المتغابي، ص96– 97.
(33)– المصدر نفسه: ص 98– 99.
(34)– عثمان لوصيف: قصائد ضمأى، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر،(د ط)، 1999، ص 74– 75.
(35)– محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، ص 390.
(36)– عبد المنعم حفني: الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص 984– 985.
(37)– عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص 50– 51.
(38)– محمد صالح خرفي: سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف، محاضرات الملتقى الوطني الثاني(السيمياء والنص الأدبي)، 15– 16 أفريل 2002، منشورات جامعة محمد خيضر بسكرة، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، الجزائر، ص 295.
(39)– عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص 52.
(40)– عثمان لوصيف: المتغابي، ص 16.
(41)– محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، ص 350.
(42)– عثمان لوصيف: براءة، ص 42– 43.
(43)– المصدر نفسه: ص 47.
(44)– محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، ص 360– 361.

(45)– عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص 6.

(46)– محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز، قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر، ص 362.

(47)– عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص 39.

(48)– فوزي سعد عيسى: جماليات التلقي، قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر، ص 207.

(49)– عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص 41.

(50)– عثمان لوصيف: براءة، ص 66.

(51)– المصدر نفسه: ص 05.

(52)– المصدر نفسه: ص 64.